حقاً

هذه الدراسة تدور حول مدى اشتراك المصريين في صفوف الجنود الذين اشتركوا في حرب الدرعية تحت قيادة كل من طوسون بن محمد علي ثم محمد علي ثم ابراهيم ·

هنالك شبه اجماع بين المؤرخين الذين تناولوا هذه الحرب بالدراسة على أن المصريين هم الذين خاضوا هذه الحرب استنادا الى أن القوات التي حاربت في الجزيرة العربية لمدة سبع سنوات ضد القوات السعودية انما خرجت من مصر وبقيادة والي مصر وابنيه طوسون وابراهيم ـ فهل كانت هذه القوات من المصريين حقا ؟

وقبل أن نتناول الاجابة على هذا السؤال من وقائع التاريخ نتساءل : اذا سيطرت قوات استعمارية على دولة من الدول ثم تحركت نفس هذه القوات من أرض تلك الدولة المغلوبة لتغزو دولة أخرى فهل تعتبر تلك الدولة المغلوبة هي المعتدية ؟

بقلم: السيد احمد مرسي عباس

أمين مكتبة الدارة

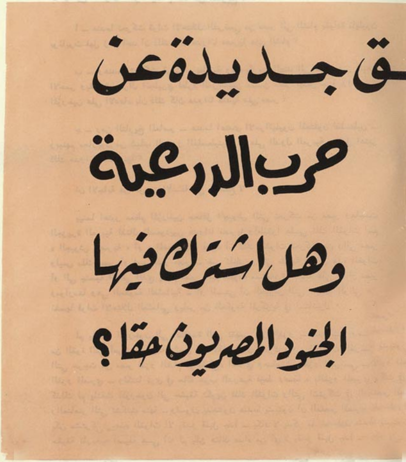

ـق جديدة عن حرب الدرعية وهل اشترك فيها الجنود المصريون حقا؟

ولتوضيح السؤال أكثر أعيده بامثلة من التاريخ :

ا ـ عندما تحركت قوات الاحتلال الفرنسي من مصر الى الشام بقيادة نابليون بونابرت فهل زعم أحد أن ذلك كان عدوانا مصريا على الشام ؟

ب ـ وعندما تحركت قوات بريطانية وهندية من الهند الى مصر عبر البحر الاحمر وبقيادة جنرال انجليزي لطرد الفرنسيين من مصر فهل جرؤ واحد من المؤرخين على الادعاء بأن ذلك كان عدوانا هنديا على مصر ؟

جـ ـ ومن التاريخ المعاصر ـ عندما اعتدى الاسرائيليون المحتلون لفلسطين ـ وبينهم محاربون من شباب الدروز الفلسطينيين ـ على الدول العربية ـ فهل اعتبر ذلك عدوانا فلسطينيا ؟

ان الاجابة عن كل من الأسئلة هي بالقطع لا ·

بينما اعتبر معظم المؤرخين جحافل الجيوش التي تحركت من مصر وهاجمت الجزيرة العربية لقتال السعوديين عدوانا مصريا وأطلقوا على تلك القوات اسم « الجيوش المصرية » أو « المصريين » لمجرد أن تلك القوات تحركت من والى مصر وليس ملك مصر أو امبراطور مصر ـ غير ناظرين الى طبيعة تكوين هذه القوات أو الى جنسية الوالي الذي يحكم مصر باسم حكومة مستعمرة متغلبة على أقدار مصر ومواردها وهي الحكومة العثمانية ـ أو الى أن الجيوش التي حركها الوالي هي نفسها قوات الاحتلال العثماني وبأمر من الحكومة المركزية في استانبول ·

لم يلتفت المؤرخون الى القاعدة التي تقضي بأن الغزو يستمد اسمه وصفته من القوة التي أمرت بتحريكه وليس من المكان الذي تحرك منه ، فالقوات الفرنسية التي خرجت من مصر لغزو الشام لم يخطىء أحد في وصفها بالغزو الفرنسي ـ لا الغزو المصري ـ ولكننا نرى في حالة حرب الدرعية فقط وصفا « بالغزو المصري » كذلك لم يلتفت المؤرخون الى حقيقة تكوين تلك القوات والتي اشتركت في الغزو والعناصر التي تشكلت منها ـ ولسوف يدهشون عندما يتبينون أن العنصر المصري لم يكن مشتركا في هذه القوات الا بقدر قليل جدا ـ يكاد لا يذكر بل لم يلتفتوا الى حقيقة تاريخية أصيلة هي أنه لم يكن هناك عداء من أي نوع بين الشعب المصري

والشعب السعودي بدليل استمرار الحاج المصري في السفر الى الأراضي المقدسة وهي تحت حكم سعود بن عبد العزيز ثم عبدالله بن سعود وكان هناك التعاطف بين المفكرين المصريين والحركة الاصلاحية السعودية سجله الجبرتي في مرجعه التاريخي العظيم ·

لم يحاول واحد من المؤرخين أن يبحث في طبيعة القوات العثمانية التي تحركت من بغداد عام ١٢١٣ هـ بقيادة واليها سليمان باشا بتكليف من السلطان العثماني نحو الدرعية ـ وكن يوسف كنج ذكيا مدركا لحقيقة هذه الحرب فأخذ يراوغ السلطان عبد العزيز في الحسا وعادت الى بغداد دون قتال ـ لم يجرؤ مؤرخ واحد على القول بأن تلك الحملة كانت غزوا عراقيا ـ كذلك لو افترضنا أن يوسف كنج والي الشام استجاب لأوامر السلطان والضغط عليه بالخروج بالجيوش العثمانية من الشام الى الدرعية ـ وكان يوسف كنج ذكيا مدركا لحقيقة هذه الحرب فأخذ يراوغ السلطان ويختلق المعاذير حتى لا ينفذ الأمر مما دفع السلطان الى اتهامه بعصيان أوامره واصدار الفرمان بعزله وقتله فهرب الى مصر مستجيرا بمحمد علي ـ لو أن هذا قد تم فهل كنا سمعنا أن الغزو السوري هاجم الدرعية ؟

لم يلتفت المؤرخون الى شهادة شهود العيان الذين عاصروا الحرب وشهدوها وسجلوها فالجبرتي في مصر رأى بعينيه جهود الوالي العثماني في تجهيز القوات وارسالها ولكن أي قوات ؟ والمؤرخ النجدي عثمان بن بشر كتب عن حوادث الحرب ما توارد اليه بالسمع عن المعارك في أعوام ١٢٢٦ و ١٢٢٧ و ١٢٢٨ و ١٢٢٩ وهي المعارك التي جرت بعيدا عن الدرعية وذكر فيها اسم « المصريين » ضمن من ذكر من الأجناس الاخرى كالترك وأهل المغرب ـ وعندما اقترب ميدان المعركة من الدرعية في الاعوام التالية نراه لا يذكر اسم المصريين مطلقا بعد أن علم باليقين من هم الغزاة ـ وشاهد ثالث هو الرحالة السويسري بوركارت الذي كان في جدة والطائف متنكرا في زي الشيخ ابراهيم بن عبدالله في وقت وجود محمد علي نفسه هناك قائد الحملة الثانية ضد السعوديين عام ١٢٢٩ هـ · وشاهد بعينيه الجنود الاتراك ـ لا المصريين ـ يملأون هذه البقاع ولمس بنفسه كراهية عرب الحجاز لهم نتيجة عدة عوامل لمسها الرحالة السويسري بنفسه مثل تعالي الاتراك وعجرفتهم وجهلهم باللغة العربية ولحنهم في قراءة القرآن وعدم المامهم بالجزيرة العربية والطباع العربية وما

كانوا يمارسونه من السلوك المشين حيال العرب فكل من لا يتكلم لغة الجندي التركي أو لا يرتدي زي الاتراك فهو « فلاح » أو « حقير » ولم يسجل الرحالة السويسري في مذكراته أنه رأى جنديا مصريا واحدا بينهم .

والآن سأحاول أن استنطق حقائق التاريخ لنرى حقيقة تكوين الجيوش التي حاربت السعوديين ولنرى أن الوالي لم يجند المصريين في جيوشه الا في عام ١٢٣٩ هـ أي بعد انتهاء حرب الدرعية بست سنوات .

ولكن ـ ما هي القوات التي كانت في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ هـ ؟

معروف أنه لم يكن في مصر جيش من أبنائها عند قدوم الحملة الفرنسية لأن مسئولية الحكم والدفاع عن البلاد كانت في أيدي المماليك ـ وكان لكل بيك من بكوات المماليك اقطاعية ضخمة من الارض يستولي على خرجها ويشكل لنفسه جيشا من المماليك وممن يلتف حوله من الاتراك والألبانيين دون أن يكون هناك ما يكبح جماحهم أو يلزمهم حدود النظام ـ ولم يجد الفرنسيون عناء يذكر في هزيمة جيوش المماليك في شبراخيت وامبابه واضطرارهم الى الفرار الى الصعيد ودخل الفرنسيون القاهرة ليعلنوا « أنهم جاءوا لتخليص أهالي مصر من طغيان البكوات المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية ، تلك الزمرة المجلوبة من بلاد الاباظة والجراكسة الذين ظلوا من زمان مديد يفسدون في الاقليم الحسن الأحسن » .

وعاش الفرنسيون في مصر ثلاث سنوات عانوا خلالها صراعا مستمرا ضد القوى التي لم تهدأ لطردهم وهي الشعب المصري نفسه الذي ثار عليهم في ربيع الثاني عام ١٢١٣ هـ وفي شوال عام ١٢١٤ هـ ـ والمتطوعون من أهالي الحجاز بقيادة الشيخ الكيلاني الذين ركبوا البحر من ينبع الى القصير للانضمام الى بكوات المماليك في جهادهم ضد الفرنسيين ـ الى جانب المماليك الذين عمدوا الى حرب المناوشات من قواعدهم في الصعيد وكذلك الحملات العثمانية المتتالية والتي انتهت بالهزيمة في كل مرة ويضاف الى ذلك انجلترا التي حطمت اسطول الفرنسيين في أبي قير بالاسكندرية وساعدت أحمد باشا الجزار والي عكا في صموده أمام الحصار الفرنسي ـ وأخيرا

كانت الحملات المشتركة من العثمانيين والانجليز والمماليك التي انتهت بخروج الفرنسيين من مصر في ٢١ صفر عام ١٢١٦ هـ .

لم يحاول الرفنسيون تشكيل قوة عسكرية من المصريين ابان احتلالهم للبلاد لاحساسهم بأن هذه القوة اذا حملت السلاح فسوف تصوبه ضدهم وأيد هذا الاحساس الثورات الشعبية والغليان المستمر ـ وكل ما أفلحوا في تشكيله هو فرقة من الاقباط بقيادة يعقوب القبطي قوامها ٥٠٠ جندي وفرقة أخرى من الأورام (الأوروبيين) المقيمين في مصر قوامها ١٥٠٠ جندي وسرعان ما انحلت هاتان الفرقتان برحيل الفرنسيين .

الجيوش العثمانية التي دخلت مصر بعد رحيل الفرنسيين :

دخل الوزير التركي يوسف ضيا باشا مصر يقود خليطا عجيبا من القوات العثمانية يتكون من الانكشارية والدالاتية والتركمان والارنؤد (الألبان) والمغاربة والسجمان والبشناق ثم ترك هذه القوات تحت أمرة احمد خسرو باشا أول والي تركي بعد خروج الفرنسيين ـ ولم يكن يجمع هذا المزيج ضبط أو نظام وانما فقط تناول المرتبات من الباشا وانتظار الغنائم والأسلاب أثناء المعارك وبعدها ـ اذ لم تكن ثمة مثل وطنية أو قومية عليا تربط بين أشتاتها .

عاث هذا الخليط في مصر فسادا وتعرض المصريون لأبشع صور العنت والقهر والارهاق من هؤلاء الجنود بحجة أنهم خلصوا المصريين من الكفرة الفرنسيين وعليهم أن يدفعوا الثمن ـ كما عانى الحاكم التركي نفسه من مؤامرتهم وتعرضهم له بالعزل والقتل ـ وقصة تولية أحد قادة فرق الارنؤد ـ محمد علي ـ حكم مصر عن طريق مؤامرات الجند معروفة للجميع .

تولى محمد علي حكم مصر عام ١٢٢٠ هـ وكانت أمامه ثلاث مشاكل تتمثل في مطالب جنود الاحتلال ومطالب المماليك الذين اشتاقوا الى العودة الى الاستئثار بخيرات البلاد والتي حرمهم منها الاتراك ثم المشكلة الثالثة وهي التكليف الذي صدر اليه من السلطان العثماني في محرم ١٢٢٣ هـ بخروج العساكر الى البلاد

الحجازية لمحاربة السعوديين · بالنسبة للمشكلة الاولى لم يكن أمامه سوى اعتصار الشعب المصري بالضرائب على اختلاف مسمياتها للحصول على المال لاسكات الجند والتغاضي عما يرتكبونه من أعمال السلب والنهب ـ وبالنسبة للمشكلة الثانية ـ مشكلة المماليك ـ فقد دبر لهم أمرا عرف في التاريخ باسم مذبحة القلعة ـ أما بالنسبة لارسال العساكر الى الحجاز فقد أخذ يراوغ في تنفيذ أمر السلطان طيلة ثلاث سنوات بحجة الاستعدادات وبناء المراكب في القلزم (البحر الاحمر) ·

القوات التي ارسلها محمد علي الى الحجاز بقيادة طوسون :

فكر محمد علي في ارسال المماليك بجيوشهم الى الحجاز كوسيلة للتخلص منهم ولكنهم فطنوا الى هذه الحيلة ورفضوا السفر لأنهم لا يضمرون أية عداوة للسعوديين وانتظروا أن يزداد ضغط السلطان ويتوجه بقواته الى الحجاز فيخلو لهم الجو ويعودون للوثوب الى السلطة سواء سافر محمد علي بنفسه على رأس الجيوش أو أرسلها تحت قيادة قائد آخر ـ المهم أن تخرج العساكر العثمانية من البلاد ـ وعقدوا معه الصلح ولبوا دعوته التي وجهها لهم بالحضور الى القلعة للاحتفال بتنصيب ابنه طوسون قائدا للقوات المسافرة الى الحجاز تحسبا منهم أن ساعة الخلاص من الجيش العثماني قد دنت فاذا هي ساعة الخلاص منهم أنفسهم وتم ذبحهم جميعا في القلعة فيما عرف بمذبحة القلعة أو مذبحة المماليك في ٦ صفر عام ١٢٢٦ هـ وبذلك أصبح الجو ملائما لارسال القوات العثمانية الى الحجاز دون خوف من قوة مناوئة ·

والآن نستعرض ماذا كتب شاهد العيان المصري المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي وهو مقيم على الارض التي صدرت القوات ـ ثم ماذا كتب شاهد العيان النجدي المؤرخ عثمان بن بشر وهو مقيم على الجانب الآخر ـ أي الارض التي استقبلت هذه القوات ولحسن الحظ كلاهما عاصراا لأحداث وسجلاها بأمانة ·

ماذا كتب الجبرتي ؟

هذا بعض ما سجله في تاريخه حول نوعيات القوات :

١ ـ في يوم ٦ ربيع الاول ١٢٢٦ هـ : عمل الباشا موكبا عظيما ··· فمر

مبنى قديم من مباني الدرعية

الموكب وفي أوله طائفة الدلالة (١) فلما فرغوا مروا بعشرة مدافع كبار على عربيات وعربيتين تحملان هونين قنابر وخلفهم طوائف عساكر الرجالة (٢) ارنؤد وأتراك (٣) وسجمان (٤) وهم كثيرون مختلطون من غير ترتيب مدة طويلة ثم كبارهم ركبانا بطوائفهم ثم الوالي ثم طوسون باشا وخلفه أتباعه واغواته ثم الكتخدا وصحبته الخازندار وخلفه النوبة التركية .

٢ ـ في ١٥ شعبان ١٢٢٦ هـ : شرع الباشا في تسهيل سفر العساكر البرية وجمع من أهل كل حرفة طائفة وكذلك من أهل كل صنعة والذي يعجز عن السفر يخرج عنه بدلا وتعين للفقهاء للسفر الشيخ محمد المهدي من الشافعية ومن الحنفية الشيخ أحمد الطحطاوي وشيخ حنبلي وصل من ناحية الشام .

٣ ـ في ١٣ ذي القعدة ١٢٢٦ هـ (هزيمة الجيش التركي في الجديدة وهروب العساكر الى السفن في البريك وينبع والبحر والمويلح ···) ·

٤ ـ في ١٠ محرم ١٢٢٧ : وصل كثير من كبار العسكر الذين تخلفوا في المويلح ··· ودخلت عساكرهم شيئا فشيئا في أسوأ حال من الجوع وتغير الألوان وكآبة المنظر والسحن ودوابهم وجمالهم في غاية العي ··· ثم دخل أكابرهم الى بيوتهم وقد سخط عليهم الباشا ومنع أن لا يأتيه منهم أحد ولا يراه وكأنهم كانوا قادرين على النصر والغلبة وفرطوا في ذلك ويلومهم على الانهزام والرجوع ··· وقد قال لي (للجبرتي) بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع :

أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضنا آذان ولا تقام به فريضة ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين والقوم ـ يقصد السعوديين ـ اذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفا خلف امام واحد بخشوع وخضوع واذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذنون وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعساكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته وينادون في معسكرهم (أي السعوديين) هلموا الى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور التاركين للصلاة الآكلين للربا القاتلين الأنفس المستحلين الحرمات ـ وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفا غير مختونين ··

٥ ـ آخر ربيع الاول ١٢٢٧ : سافر عدد من العساكر المغاربة (٥) الى ينبع ووصل جملة كبيرة عساكر الأروام (٦) الى الاسكندرية ··· وعين منهم للسفر من عين ·

٦ ـ آخر جمادي الثانية ١٢٢٧ هـ : وصل صالح قوج ومحو بك وسليمان آغا وخليل آغا (وهم قادة الجنود المنهزمة والهاربة من المويلح) من ينبع عن طريق القصير ···

٧ ـ في ٢٤ رجب ١٢٢٧ : أرسل الباشا الى القادة المهزومين في المويلح علائفهم المنكسرة وقدرها ١٨٠٠ كيس ووجه اليهم بالسفر الى بلادهم (مطرودين من مصر) فضاق ذرعهم وتكدر طبعهم للغاية وعسر عليهم مفارقة أرض مصر وما صاروا فيه من التنعم والرفاهية والسيادة والامارة والتصرف في الاحكام والمساكن العظيمة والزوجات والسراري والعبيد والجواري فان الأقل منهم له البيتان والثلاثة من بيوت الأمراء ونسائهم (ويقصد الأمراء المماليك الذين ذبحوا في مذبحة القلعة) ٠

٨ ـ في ١٤ رمضان ١٢٢٧ هـ : يستأنف الجبرتي كلامه عن هذه الأجناس فيقول : ٠٠٠ واكثرهم مستوطنون (في مصر) ومتزوجون بل ومتناسلون ويصعب عليهم مغادرة الوطن وما صاروا فيه من التنعم ولا يهون عليهم بمطلق الحيوان استبدال النعيم بالجحيم ويعلمون عاقبة ما هم صائرون اليه لأنه فيما بلغنا أن من سافر منهم الى بلاده قبض عليه حاكمها وأخذ منه ما معه من المال الذي جمعه من مصر وما معه من المتاع وأودعه السجن ويفرض عليه قدرا فلا يطلقه حتى يقوم يدفعه على ظن أن يكون أودع شيئا عند غيره فيشتري نفسه أو يتريه أقاربه أو يرسل الى مصر مراسلة لعشيرته وأقاربه فتأخذهم عليه الغيرة فيرسلون له ما فرض عليه ويفتدونه والا فيموت في السجن او يطلق مجردا ويرجع الى حالته التي كان عليها في السابق من الخدم الممتهنة والاحتطاب من الجبل والتكسب من السنائع الدنيئة ببيع الاسقاط والكروسين والمؤاجرة في حمل الأمتعة ونحو ذلك فلذلك يختارون الاقامة في مصر ويتركون مخاديمهم خصوصا والخسة من طباعهم ٠

٩ ـ في الاثنين ٦ ربيع الثاني ١٢٢٩ : حضر مميس آغا من الحجاز مرسلا من عند الباشا (الذي سافر الى الحجاز في شوال ١٢٢٨) باستعجال حسن باشا للحضور الى الحجاز وكان قبل ذلك بأيام ارسل يطلب سبعة آلاف عسكري وسبعة آلاف كيس فشرع كتخدا بك في استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى فكان كل من ضاق به الحال من معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه وان كان وجيها جعله أميرا على مائة أو مائتين ويعطيه أكياسا يفرقها في أنفاره

ويشتري فرسا وسلاحا ويتقلد بسيف وطبنجات وكذلك أنفاره ويلبسون قناطيس ولباسا مثل لبس العسكر ويعلق له وزنة بارود تحت ابطه ويأخذ على كتفه بندقية ويمشون أمام كبيرهم مثل الموكب وفيهم أشخاص من الفعلة الذين يستعملون في شيل التراب والطين في العمائر وبرابرة ، وأرسل كتخدا الى الفيوم وغيرها بطلب رجال من أمثال ذلك وجمعوا الكثير من أرباب الصنائع مثل الجنازين والفرانين والنجارين والحدادين والبياطرة وغيرهم من أرباب الصنائع ويسحبونهم قهرا .

وهذه هي المرة الاولى التي يرد فيها ذكر الصعايدة والفلاحين الذين تطوعوا للخدمة في جيش محمد علي .

١ ــ في حوادث عام ١٢٢٦ هـ : في هذه السنة أجمع أمراء الترك على المسير الى الحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب والسفن والمدافع والقنابر والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون اليه من الاموال والذخائر من الطعام وغيره فاجتمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها الى الشام ومصر والرئيس المقوم بهذا الأمر من جهة الترك صاحب مصر محمد علي ... فكانت العساكر التي استقلت من مصر من الترك وأهل المغرب نحو أربعة عشر ألف مقاتل أو يزيدون ومعهم من الخيل عدد كثير فلما اجتمعت العساكر في الينبع هرب منه رئيسه جابر بن جبارة وقصد المسلمين فلما سمع سعود بمسيرهم أمر على نواحي المسلمين من الحاضرة والبادية من أهل نجد والجنوب والحجاز وتهامة وغيرهم فسيرهم مع ابنه عبدالله فنهض عبدالله بتلك الجنود ونزل الخيف المعروف من وادي الصفراء فوق المدينة النبوية واستعدوا لاقبال العساكر المصرية .

٢ ــ وفي حوادث ١٢٢٧ هـ : قدم من مصر أحمد بن نابرت (وهو القائد التركي أحمد بونابرتة المشهور باسم بونابرتة الخازندار) على العسكر الذي في ينبع البحر مع أحمد طوسون ... بعساكر كثيرة من مصر جهزها معه محمد علي ... فنزلوا على المدينة المنورة ... ثم ان العساكر المصرية كادوهم بكل كيد وسدوا عنهم المياه الداخلة في وسط المدينة .

٣ ـ وفي حوادث ١٢٢٨ هـ : ... ثم ان طوسون والعساكر المصريين ساروا الى مكة ودخلوها بغير قتال ... فلما كان في شعبان من هذه السنة اجتمعت العساكر المصرية من مكة والطائف وسار بهم مصطفى ومعهم راجح الشريف في جموع من البوادي الذين نقضوا العهد وتابعوا الترك فسارت تلك العساكر والجموع ومعهم المدافع والقنابر وقصدوا بلد تربة .

٤ ـ وفي حوادث ١٢٢٩ هـ : اقبل عساكر كثيفة من مصر مع البحر وبندروا عند القنفذة واستولوا عليها وعلى من فيها فتجهز طامي بن شعيب برعاياه من عسير وغيرهم وساروا اليهم في القنفذة فالتقى الفريقان وحصل قتال شديد ونصر الله المسلمين وانهزمت العساكر المصرية وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ثم نجد المؤرخ النجدي يتوقف عن ذكر المصريين في حوادث السنتين التاليتين ١٢٣٠ و ١٢٣١ وشاعت في كتابته عبارات : محمد علي وعساكره أو محمد علي صاحب مصر والترك أو محمد علي وعساكر الترك أو الروم .

ففي حوادث عام ١٢٣١ يذكر أن محمد علي جهز العساكر الكثيفة من مصر والترك والمغرب والشام والعراق ونجد مع ابراهيم باشا ـ ثم يعود في عام ١٢٣٢ فيذكر أن « العساكر المصريين في الحناكية مع ابراهيم ومعه البوادي المذكورون » (حرب ومطير وعتيبة ومن عنزة الدهامشة) .

ثم يختفي اسم المصريين من أخبار معارك ماوية والرس وشقراء وضرمى حتى وصول القوات الى الدرعية في جمادي الاولى ١٢٣٣ ـ ومن المعروف أن كتابة الشيخ عثمان بن بشر عن معارك الدرعية هي أدق وأوفى ما كتب عن تفاصيل هذه المعارك بل هي المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه كل من يتعرض لتأريخها والكتابة عنها ـ وكتابة الشيخ المؤرخ هذه لم يرد فيها ذكر المصريين مطلقا بين القوات الغازية بل هم من المغاربة والدالتية والروم والترك فمن قوله « ... فلما كان بعد وقعة غبيراء بمدة يسيرة جمع الباشا (ابراهيم باشا) من كل مترس من متارس عساكره رجالا من القرابة وضمهم الى ما عنده من الخيالة وأرسلهم الى علي

أذن (٧) رئيس العساكر الجنوبية وجعلهم عنده في تلك الجهة ثم أنه أمر العساكر الشمالية من المغاربة والدالتية أن يضرموا الحرب ويحققوه على من يليهم من جموع أهل الدرعية ومتاريسهم ».

وغني عن البيان أن النصوص السابقة من كتابات الشيخين المؤرخين المصري والنجدي تدلل على حقيقة هي أن المصريين لم يكونوا مقاتلين ضد اخوانهم السعوديين في هذه الحرب – فقد اتفق المؤرخان – على بعد الشقة بينهما – على أن الجيوش المهاجمة كانت من جنود الامبراطورية العثمانية بأجناسها المختلفة من انكشارية اتراك ودلاة ومغاربة وأروام وأرنؤد ، وكان الاختلاف الوحيد بينهما هو أن المؤرخ النجدي كان يخلط بين المصريين والعثمانيين فنراه يطلق اسم المصريين على كل المحاربين في سنوات الحرب الاولى – وعندما تقدمت الجيوش العثمانية نحو الدرعية وأصبحت في متناول سمع المؤرخ وبصره فسماهم بأسمائهم الحقيقية ولم يذكر بينهم العنصر المصري لانه لم يجده بينهم ، أما العنصر المصري الذي ذكره الجبرتي فكان حفنة قليلة من أرباب الحرف المنزوعين قسرا من صنائعهم ومن المتطوعين من الفلاحين والصعايدة من عمال العمائر من ضاق بهم العيش وذهبوا الى المعركة بدون ترتيب أو تدريب.

ولكن متى تم تشكيل أول جيش مصري ؟

حاو لمحمد علي عام ١٢٣٠ أن يدخل نظاما جديدا في صفوف فرق الألبان (الأرنؤد) والدلاة والمغاربة والانكشارية ليجعل منها فرقا حديثة على نسق الجيوش الأوربية ولكنهم اعترضوا وأطلقوا على النظام الجديد اسم البدعة وصاروا يرددون الحديث الشريف « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » ووصل بهم الأمر الى التآمر على حياته – وبعد انتهاء حرب الدرعية أقدم على محاولة ثانية لتشكيل جيش نظامي ولكن من عنصر آخر غير عثماني – من السودانيين – وكان هذا الهدف من الأسباب الأساسية لفتح السودان – ولم تفلح المحاولة.

أخيرا اضطر الباشا الى تجنيد « الفلاحين » من أهل مصر في جيشه الجديد عام ١٢٣٩ أي بعد انتهاء حرب الدرعية بست سنوات ، ولم يكن الطريق سهلا لأن أول من اعترض على تجنيد المصريين هم الأرستقراطية التركية في مصر بحجة أن الجندية مهنة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح في متناول الفلاحين ـ كما زعموا أن وضع السلاح في أيدي الفلاحين المغلوبين انما هو تسليمهم الأداة التي يطردون بها العثمانيين الغالبين ، ولكن محمد علي مضى في سبيله غير عابىء بهذه المزاعم ونجحت التجربة نجاحا لم يتوقعه ، وسافر أول آلاي الى جدة في ربيع الثاني ١٢٣٩ .

خاتمة :

واخيرا نتساءل : لماذا يصر المؤرخون الذين يتعرضون لدراسة هذه الحروب على أن المصريين هم الذين حاربوا الدولة السعودية ؟ ان الأسباب في ظني هي أن الحملات تحركت من مصر وبقيادة والي مصر وبامكانيات ولاية مصر التي دفعها الفلاحون المصريون بالقهر والقسر ، هذا الى جانب التصاق محمد علي وأسرته بحكم مصر لحقبة طويلة زادت على قرن ونصف من الزمان ، وضم سجل الرجل كل حروبه سواء تلك التي لم يشترك فيها الجنود المصريون مثل حربي الدرعية وفتح السودان ، وتلك التي اشتركوا فيها مثل حربي المورة والشام واعتبرت جميعها من التاريخ العسكري المصري واعتبر قادتها من أبطال الحرب المصريين ، ولكن آن الأوان لتصحيح معلومة تاريخية عاشت في الظلام منذ عام ١٢٣٣ هـ .

السيد أحمد مرسي عباس

المراجـــع :

١ ـ عثمان بن بشر

عنوان المجد في تاريخ نجد ، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، الطبعة الثانية ، الرياض ، وزارة المعارف ، ١٣٩١ هـ ٠

٢ ـ الجبرتي ، عبد الرحمن

عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، القاهرة، دار الطباعة الأميرية، ١٢٩٧هـ٠

٣ ـ محمد فؤاد شكري

بناء دولة مصر محمد علي ، تاليف محمد فؤاد شكري وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل ٠ القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ م ٠

٤ ـ محمد فؤاد شكري

الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ٠ القاهرة ، دار الفكر العربي٠

٥ ـ عبد الكريم رافق

العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ م ٠ دمشق ، مكتبة أطلس ، ١٩٧٤ ٠

٦ ـ Burck hart, Jown Lewis

Travels in Arabia. London, Frank Cass, 1968

الهوامش

(١) الدلاة أو الدلاتية طائفة من الفرسان يقول عنها الجبرتي : انهم طائفة تنسب نفسها الى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأكثرهم من نواحي الشام وجبال الدروز والمتاولة ويركبون الأكاديس وعلى رؤوسهم الطراطير السود مصنوعة من جلود الغنم الصغار طول الطرطور نحو ذراع وهؤلاء الطائفة مشهورة في دولة العثمانيين بالشجاعة والاقدام في الحروب ـ ويقول الدكتور عبد الكريم رافق في كتاب « العرب والعثمانيون » الدلاتية مشتقة من كلمة دلى التركية أي الأحمق أو المجنون ودعوا بذلك نظرا لطيشهم وجندوا من أجناس مختلفة من الأناضول .

(٢) الرجالة هم المشاة .

(٣) الأتراك يقصد بهم الانكشارية وهم الجنود الذين من أصل تركي متكبرون وينظرون في أنفسهم انهم فخذ السلطنة وأن الأرنؤود خدمهم وعسكرهم وأتباعهم .

(٤) السجمان وهم نوع من المرتزقة الموصوفين بالبطالة ولا يتقاضون المرتبات الا في وقت الحرب فقط اما في وقت السلم فكانوا يهيمون في الأناضول يبيعون خدماتهم لمن يطلبها .

(٥) العساكر المغاربة وهم الجنود من شمال افريقية أتوا الى بلاد الشام ومصر بطريق القرصنة او الحج أو المجاورة واستخدموا كمرتزقة في البلدين وقد وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق في القرن الثامن عشر منتسبة الى المناطق الجغرافية التي قدمت منها وهي : الفاسية والجزائرية والسوسية والتونسية والطرابلسية والدراوية والمراكشية (د٠ عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون) .

(٦) عساكر الأروام وهم الجنود من المستعمرات العثمانية في أوروبا كاليونان والبلغار واليوغسلاف (البشناق) .

(٧) علي أزن هذا هو علي أزون قائد فرسان الدلاة ، وازون لفظ تركي معناه الطويل ـ وقد نقلها فيلبي في كتابه برسم AZON وعندما قام عمر الديراوي بترجمة كتاب فيلبي كتبها عزان .